نزوى

فصلية ثقافية - العدد المائة وواحد

NIZWA 2020 - 101

اليومية الإيديولوجية
في «النجمة» والكوكوت لحفيظة قارة بيبان

جليلة طريطر*

اليوميّة الخاصّة نصّ يدرج في كتابات الأنا، وتعتبره النّاقدة الفرنسيّة بياتريس ديدياي Bé-atrice Didier[1] وليد القرن التّاسع عشر بامتياز، علما وأنّها أرّخت لنشوئيّته التّاريخيّة انطلاقا من استقرائها لمدوّنة أوروبيّة ارتبطت ارتباطا عضويا بسياقاتها الأوروبيّة المخصوصة، سواء التّاريخيّة منها أو الثّقافيّة. ولئن اعتنت بمناقشة مفهوم الخاصّ / الحميم Intime باعتباره فضفاضا لا يسمح البتّة في نظرها باستبعاد الحياة الفكرية لكاتب اليوميّة Dia-riste فضلا عن إقصاء الآخر بما هو واقع نظريا خارج مجال الذّات الفرديّة الخاصّة، فهي قد ألحّت على تجنيس[2] اليوميّة وفق خصيصتين أساسيّتين : أولاهما اعتبار كتابتها أشبه ما تكون بتمرين يوميّ متواصل (الكتابة يوما بيوم) رغم ما قد يعتريه فعليا من انقطاعات قد تطول أو تقصر، وثانيتهما هو كونها تقدّم لنا دون سواها من كتابات الذّات الأخرى تجربة معيشة حيّة يقترب فيها زمن الحكاية/ الأحداث المرويّة من زمن الخطاب/ مقام التّلقّظ، بحيث لا يتجاوز الفاصل الزّمنيّ بينهما أكثر من ساعات معدودات، خلافا للسّيرة الذّاتيّة مثلا الّتي تكون فيها عمليّة الاسترجاع على المدى الطويل، خاصّة في مستوى رواية محكي الطّفولة الّذي يمثّل عادة مرتكز البداية فيها. وقد أشارت ديدياي إلى مقاربتين سابقتين لنّصها المذكور، إحداهما لـ ميشيل لولو Mi-chèle Leuleu اعتنت فيها بتفحّص طباع الكتّاب في يوميّاتهم، في حين عنيت الثانية، وهي لـ آلان جيرار Alain Girard بتتبع تاريخيّة مفهوم الشّخص. ولكنّ ديدياي حادت عن هذا المنحى باعتباره يؤكد القيمة الوثائقيّة والسيريّة لليوميّة، وفضّلت مقاربة اليوميّة باعتبارها أوّلا وأخيرا نصّا مكتوبا، وهو ما كان ملائما لسياقها النّقديّ الفرنسيّ الّذي هيمنت عليه في ذلك الوقت التوجّهات البنيويّة على نحو مخصوص.

نشير في البدء إلى أنّ هذه المقرّرات النّظريّة لديدياي، تبقى على أهميّتها نسبيّة، لأنّها موصولة بداية بإطارها الثّقافيّ والتّاريخيّ الأوروبيّ المختلف نسبيا عن السّياقات العربيّة، فضلا عن كونها خاضعة حتّى داخل أطرها الأوروبيّة المخصوصة إلى تباين التوجّهات النّقديّة[3] المهتمّة لاحقا بكتابات الذّات، إضافة إلى أنّ هذه النّصوص عصيّة على التّنميط لا تستجيب في كلّ الحالات

* كاتبة وأكاديمية من تونس

لمثل هذه التوجّهات المنهجيّة والمعنويّة، بل وتتجاوزها في عديد الحالات.

وفي هذا السّياق بالذّات نتساءل من موقع مغاير ثقافيا، عن ممارسة كتابة اليوميّة الخاصّة، مثلما تجلّت لنا لدى الكاتبة التّونسيّة حفيظة قارة بيبان[4] في نصّها الموسوم بـ النّجمة والكوكوت[5]، وعن مدى خصوصيّة تجربتها الكتابيّة هذه في ارتباطها عضويا بحدث تاريخيّ متميّز في سياقها عرف بـ «ثورة الياسمين» التي مثّلت في 14 يناير 2010 منطلق ثورات «الرّبيع العربيّ»، فضلا عن كونها تجربة تنخرط في كتابات المرأة لذاتها، بما هي كاتبة تونسيّة عربيّة معاصرة. فإذا كانت بياتريس ديدياي لم تستعرض في تصنيفها المضمونيّ ليوميّات مدوّنتها أكثر من عدد محدود من الأنماط مثل يوميّة السّجن، والمخدّرات، والمرض، والسّفر على سبيل المثال، فهل يمكن أن نضيف إليها نمطا آخر غير ما ذكرت، وهو ما اصطلحنا عليه بـ اليوميّة الإيديولوجيّة[6]»؟ وهي صنف استقرأناه فعليا صلب النصّ المذكور. فبماذا يمكن تحديد المقوّمات الأجناسيّة [7]الخلافيّة لهذه اليوميّات الموسومة عندنا بالإيديولوجيّة في يوميّات حفيظة قارة بيبان؟ ألا يمكن أن يتعارض هذا التوصيف الإيديولوجيّ مع ما عرفت به اليوميّة الخاصّة من جنوح إلى محاورة الذّات، وانغلاق شبه مرضيّ على الحميم والفرديّ، غالبا ما يجعلها أقرب إلى ما تسميه ديدياي بـ «الملجأ الرحميّ»، وأبعد ما تكون عن الاستدعاء المركزيّ للآخر، بما يقتضيه من استحضار مكثّف للشّأن العامّ، والمرجعيّات التّاريخيّة؟ إلى أيّ حدّ يمكن التّسليم بأنّ أفق اليوميّة المخصوص هو أساسا أفق «الدّاخل» أو الجوانيّ، مقابل» الخارج»، أو البرّاني، لأنّ هذا الخارج هو في الأصل الأفق المرجعيّ المميّز للمذكّرات تحديدا؟ وبما أنّنا إزاء كاتبة، فهل يمكننا أن نتغاضى من هذه الجهة النوعيّة بالذّات عن وظائف مقام التّلفّظ الجندريّ في توجيه الفعل التّسجيليّ للحياة اليوميّة لدى المرأة كاتبة ليوميّاتها؟ فقد لاحظت ديدياي أنّ ممارسة كتابة اليوميّة كانت موصولة دائما في التّاريخ بالمرأة، نظرا لكونها مقصيّة تجد في تدوين مشاعرها وأفكارها بديلا ورقيا من هذا الإقصاء الاجتماعيّ. وهو ما يدلّ في نظرنا على أنّ ما نسمّيه داخلا مقابل ما هو خارج في اليوميّة ليس في واقع الأمر سوى حوار جدليّ، لا يغيب فيه التّاريخ الخارجيّ بقدر ما ينقاد فيه انقيادا إلى منظور كاتب اليوميّة الذّاتي، هذا المنظور ذاته تكيّفه مختلف تراتبيّات الأنا المتكوّنة من تموقعاته الاجتماعيّة مثل (الطبقة، الجنس، المهنة...).

إنّ السّؤال الإيديولوجيّ هو في باطنه سِؤال هوويّ في الصّميم، يطرح إشكاليّة تعالق الدّاخل والخارج في علاقتهما بآليّات كتابة الذّات في اليوميّة الخاصّة، ولكنّه في الآن ذاته سؤال لا يمكنه أن يتغافل عن مساءلة علاقة الشّكل في اليوميّة بإنتاج مضمونها الإيديولوجيّ. فإذا سلّمنا بأنّ اليوميّة «كتابة حرّة»، مختلطة اللّغة والأساليب، أو عارية من الأدبيّة « لا بنية لها»، مثلما قالت بذلك ديدياي، فهل سيؤدّي ذلك بالضرورة إلى تأكيد تشظّي اليوميّة وتجزّئها في كلّ الحالات، بما يجعلها عاجزة عن بناء هويّة سرديّة عضويّة، تلمّ دفق الكلام فيها حتّى وإن كانت إيديولوجيّة المنزع؟ هل يستحيل على اليوميّة الخاصّة حتّى على نحو أعمّ أن تكون أكثر من شتات مبعثر عاجز عن منحنا صورة لهويّة متماسكة يبنيها السّرد؟ وهل يستحيل تبعا لذلك على هذا الشّتات اليوميّ المنثور على خطّ الزّمن التّصاعدي، أن يبلغ مبلغ المشهد الأدبيّ التّمثيلي للأنا، وهو يصطرع يوميا مع أمواج الزّمن المتلاطمة؟ هل يتعارض التّوجّه الإيديولوجيّ فعلا مع الأدبيّة (Littérarité)

هل يتعارض التوجه الايديولوجي مع الأدبية؟

تأكيدا لاستبعاد نزوع كتابة اليوميّ للهاجس الفنّي الجمالي؟

هذه الأسئلة المترابطة في واقع الأمر، نطرحها وفق خطّة نقديّة تسعى في بدايتها إلى التّعريف بحيثيّات نشوئيّة النّجمة والكوكوت وتوصيفه نصّا يكتب اليوميّ، وهو ما يؤدّي إلى مقاربة ثلاثة مستويات متشابكة: تشكّل اليوميّة الإيديولوجيّة في النّص في المستوى الأوّل من حيث هي مضمون، أو فضاء يحتفي بقول مرجعيّات العالم في علاقة متينة بمنواله الشّكليّ المنتج لهذا المعنى. أمّا المستوى الثّاني، فيتعلّق بمساءلة مدى أدبيّة النّص المستجلاة لمدى وجاهة التّسليم عامّة بعدم نزوع اليّوميّات إلى تحقيق شرط الأدبيّة على أساس أنّها كتابة حرّة، خاصّة وأنّنا ندرس في هذا الصدد يوميّات ذات توجّه إيديولوجيّ؟ ثالثا وأخيرا نطرح خصوصيّة السّؤال الهوويّ الإيديولوجيّ لدى حفيظة قارة بيبان باعتباره سؤالا لا يمكنه أن ينفصل عن مقام تلفّظه الأنثويّ

في تجنيس النجمة والكوكوت وتوصيفها

نشتغل بنصّ النّجمة والكوكوت للمؤلّفة حفيظة قارة بيبان في طبعته الثّانية الصادرة في تونس عن رسلان للطّباعة والنّشر سنة 2018. وقد جاء في الصفحة الأولى من الغلاف، وهو مصاحب نصّي ما يفيد صراحة تجنيس النصّ في عداد اليوميّات الخاصّة، بما من شأنه أن يجعل اسم المؤلّفة الماثل أعلى الصفحة في مقام تلفّظ مرجعيّ ذاتيّ محمول على بسط الهويّة المدنيّة لكاتبة اليوميّة، وهو ما يؤدّي حتما إلى معاملة اسم العلم هنا معاملة الأنا الأصليّ الواقعيّ8 الّذي يتحمّل بالكامل مسؤوليّات كلّ ما يرد على لسان قلمه من أقوال، أو مرويّات. ولا يفوتنا هنا، ونحن نستدلّ على مرجعيّة النصّ الذاتيّة أن نشير إلى عدد من الملاحظات المبدئيّة الّتي تسم هذا التّعريّ الاسميّ بسمات خلافيّة لافتة بداية من عتبات الغلاف.

لقد اقترن اسم العلم هنا بالاسم التّأليفيّ[9] Auctorial المستعار: بنت البحر. وفي مثل هذه الحالة يبطل التّجاور القائم بين التّصريح باسم العلم المدنيّ والاسم المستعار/ القناع الاسميّ، الالتباس الهوويّ الّذي يدور عليه التّقنّع الاسميّ الاستعاريّ عادة، وخاصّة لدى المرأة الكاتبة، ليصبح هذا التّجاور التّراتبي مفصحا عن تراتب هويتين متداخلتين في النصّ، هويّة تأليفيّة تتصدّر الغلاف لتذكّر بأنّ بنت البحر لافتة اسميّة مشهورة لمؤلّفة معروفة، أو إمضاء تأليفيّ لأديبة تتمتّع بموطن قدم راسخة في مجال التّأليف الرّوائي والقصصيّ التّونسيّ المعاصر. وهو ما يعني أنّ الاسم المستعار لا يشتغل هنا مطلقا بوصفه قناع تعتيم هوويّ، مثلما هو معروف في كتابات المرأة العربيّة الرّياديّة[10] بل على العكس من ذلك هو نوع من التّجلّي الّذي يقوم على إبراز الهوية التّأليقيّة/ القلميّة والاحتفاء بها من ناحية، وتمحيصها من ناحية أخرى لرفع الغطاء عن الهويّة المدنيّة الأصليّة، بما هي خلفيّة مرجعيّة تريد بنت البحر تقديمها هذه المرّة خلافا لسائر إنتاجها الرّوائيّ السّابق موضوعا لكتابها وقرّائها.

المؤلّفة هي إذن صورة مقاميّة من صور اسم العلم، لأنّها تحيل تحديدا على ذات فاعلة في الثّقافة، تتمتّع برصيد تأليفيّ وكفاءات قلميّة مشهود بها. ولأنّها تمارس فعل الكتابة الذّاتيّة هنا، فإنّ حفيظة الإنسانة، هي موضوع الفعل الكتابيّ، تتعامل معها المؤلّفة باعتبارها شخصيّة واقعيّة مركزية في نصّ يكتب يوميّاتها، أي حلقات من تسلسل معيشها اليوميّ في فترة محدّدة زمنيا، وهي الفترة المصرّح على الغلاف بامتدادها من ديسمبر 2010

الكاتبة الإنسانة، هي موضوع الفعل الكتابيّ

إلى ديسمبر 2013. وبمعنى آخر تكون كتابة يوميّات حفيظة قارة بيبان موكولة إلى المؤلّفة المعروفة بـ بنت البحر، وهو ما يتحقّق فعليا في مستوى مؤشّرين: مؤشّر النّشر، فاليوميّات غادرت المخطوط وصارت كتابا منشورا لا يمكن أن يعزى لغير مؤلّفته، ومؤشّر صياغة العنونة: النّجمة والكوكوت، صياغة، الأرجح أنّها مابعديّة، محايثة للنّشر، ذات أبعاد أدبيّة، نظرا لما يكتنفها من غموض وإلغاز في هذا الطور الأوّلي من تشكّل النصّ المكتنز داخل صيغة عنونته. إنّنا أبعد ما نكون عن صيغ العنونة المباشرة ذات الإحالة الأجناسيّة المباشرة من نوع يوميّاتي قياسا على حياتي[11] في السيرة الذاتيّة. بل على العكس نقف بداية على ضرب من الأدبيّة القائمة على الرّبط الملغز بين شيئين لا يربط بينهما رابط عقليّ، النّجمة جسما سماويا، والكوكوت أداة في المطبخ. وهو ما سيقودنا لاحقا إلى فكّ جزئيّ لهذا الإلغاز على اعتبار أنّ النّجمة والكوكوت كليهما بمثابة مفتاحين مرجعيين بهما يتمّ فكّ شفرات النصّ بعد تجاوز عتباته والإيغال فيه، ولكن العلاقة التّرابطيّة بين العلامتين تظلّ نقطة استفهام لأنّها تحتاج إلى تفكيك ما بعديّ يتجاوز مجرّد التّرابط الذّي يفيده العطف إلى تأويل قرائي في مستويات ضمنيّة أعلى.

إنّ اندراج استراتيجيّة العنونة ضمن صيغة متعدّدة الأبعاد الدّلاليّة يؤشّر على أنّنا إزاء مؤلّفة تعيد إنتاج فترة من حياتها وقفا لآليات كتابيّة غير مسطّحة، إذ لا تعتمد أساسا على التّواصل الإخباري المحض بما هو تواصل من درجة أولى، بل تنشد بداية إدراج معيشها في أبعاد كتابيّة أدبيّة منفتحة على التّأويل. وتتأكّد لدينا سطوة المؤلّفة / الكاتبة على اسم العلم عندما ننزل إلى أسفل الصفحة الأولى من الغلاف حيث يتفرّع المشروع اليوميّاتي إلى عناصره التّكوينيّة المراد توجيه فعل القراءة إليها، فإذا حفيظة/ المؤلّفة: (روائيّة وقاصّة) تعلن بأنّها تنشر يوميّات حفيظة/ الكاتبة محدثة علاقة استبداليّة بين اسم العلم حفيظة، والمقام التّأليفيّ/كاتبة، وهو ما يؤدّي إلى الإلحاح على تنزيل المشروع الكتابيّ في سياقاته الإيديولوجيّة الفكريّة والأدبيّة، بدلا من تمحيضه لسرد الأنا اليوميّ في أبعاده الحميمة أو السريّة. هذا التّوجّه الّذي يجعل من الأنا الكاتبة بؤرة السّرد المركزيّة في اليوميّة، هو أنا مشارك وليس أنا منفردا بهذا المشروع الكتابيّ، فظهور حليم قارة بيبان الفنّان التّشكيليّ (فنّان تشكيليّ متعدّد الاختصاصات والتّعبيرات)، وهو أخو حفيظة باعتباره أنا متلفّظا مشاركا في النصّ من شأنه أن يوسّع من حدود الدائرة التّلفّظيّة المرجعيّة الذّاتيّة لليوميّات، فضلا عن أنّ تفعيل هويّته الفنيّة حصريا هو مؤشّر واضح على تأكيد الهيمنة الثّنائيّة للتموقع الهوويّ الثّقافي على حساب التّموقع الإنسانيّ الحميم أو الجوّانيّ. أو لنقل على الأقلّ إنّ الخطّ الموجّه للفعل الكتابيّ، هو إدراج الخاصّ (بما هو أشمل من الحميم والسرّي) في الشّأن الثقافيّ والتّاريخيّ العامّ.

إنّ طرافة يوميّات حفيظة قارة بيبان اللاّفتة تنشأ بدءا من هذه الازدواجيّة التلفّظية الّتي ستقود فعل كتابة اليوميّ باعتباره فعل اشتراك ومشاركة بين أخوين لا توحدّ بينهما الرّابطة الأسريّة أو الدمويّة فحسب، بل توحّد بينهما بالأخصّ زاوية النّظر الثّقافيّة/ الفنيّة للعالم، كلّ يساهم في بناء المعنى من داخل فضائه النّسقي السّيميائي: النّسق اللّغوي من ناحية، والصّورة من ناحية أخرى بما هي نسق سيميائيّ بصريّ متعدّد الأبعاد، وإن لم تكن عارية في اليوميّات من المصاحبات اللّغويّة المواكبة لها. النسقان متداخلان مشتبكان يضفيان على إنتاج المعنى سمكا وعمقا طريفين. ويمكن اعتبار اللّوحة المتصدّرة لوسط صفحة الغلاف الأولى الّذي

تتجلّى فيها صورة الكوكوت محاطة بجسيمات سوداء كثيفة ومحلّقة حولها، مركزا بصريا للانتظام التّشكيلي في الصورة، وتشتغل اللّوحة هنا باعتبارها أيقونة تؤشّر على حضور الهويّة الفنيّة لحليم مشاركة في توجيه الكتابة، ومؤثّثة لمساحات نصيّة بيضاء في فضاء اليوميّة. لقد تحدّثت ديدياي عن اليوميّات الأسريّة، واستشهدت بأسرة ليون تولستوي Léon Tolstoi الّتي كانت فيها الزوجة والبنت كلتاهما تمسك يوميّة مدارها على حياة الأسرة وعلاقاتها المشكليّة بين أفرادها، ولكنّها ثلاثيّة منفصلة، في حين أنّ يوميّات النّجمة والكوكوت اتّصاليّة يتناغم فيها صوتان، ومنظوران إزاء حدث واحد : الثورة، يتداخلان، ويتناوبان في سمفونيّة واحدة متعدّدة الأبعاد، إلى حدّ أنّه يحقّ لنا أن نتساءل عن مدى وحدة هذه اليوميّات المشتركة، و إن اجتمعت في حامل ورقيّ موحّد؟، بل ومدى وجاهة إنمائها إلى دائرة كتابة الذّات حصريا باعتبارها تطمس الحدود المسيّجة لاستقلاليّة الهويّة الفرديّة، وهي تحفر داخل كتابة اليوميّ مساحات اغترابها، وخصوصيّاتها الخلافيّة، مثلما هو الشّأن عادة في تقاليد كتابة اليوميّات الخاصّة الشائعة؟. فكيف يمكن لاستدعاء الآخر، حتّى وإن كان ذلك تحت لافتة الشّبيه، أو الصنو غير متعارض مع استراتيجيّات قول الأنا المنغلقة الّتي عادة ما تستدعي الآخرين من أجل محاكمتهم أو طردهم، أو الإمعان في استبعادهم من عوالم الذّات المنطوية على ذاتها. اليوميّة كانت دائما تحضر باعتبارها مساحة تملّك أكثر من كونها مساحة استضافة للآخر.

إنّ العنوان الفرعيّ الوارد أسفل الصفحة: من يوميّات كاتبة وفنّان، يثير قضيّة شائكة في علاقة متينة بما يصطلح عليه بـ «نشوئيّة اليوميّة».[12] إنّ تصدّر من العنوان الفرعيّ، وهي تفيد التّبعيض يحيل على فترتين أو نصين: فترة ما قبل النّشر، ويوازيها نصّ اليوميّة الخام/ المخطوط، وفترة ما بعد النّشر ويمثّلها الكتاب المنشور لليوميّات في مختلف طبعاته الكائنة والآتية على حدّ سواء. إنّنا إذن إزاء نصّ متولّد من نصّ أوّل أشمل، أعادت الكاتبة كتابته وفق استراتيجيّات لا يمكن النفاذ إلى حقيقتها إلاّ من خلال إجراء مقاربة نشوئيّة يخضع فيها الكتاب منشورا إلى مقارنات دقيقة على كلّ الأصعدة مع اليوميّات نصّا مخطوطا خاما. ولكنّنا نستطيع بدءا أن نفترض أنّ ما اصطلحنا عليه بـ اليوميّة الإيديولوجيّة يحيل في هذا السّياق بالذّات على عمليّة تحويل (إعمال مقصّ) تقوم على مبدأ توحيد للمادّة المنتخبة وفق معيار مضمونيّ أساسا، ذلك أنّ اليّوميّات بما هي مجال حرّ لسرد اليوميّ، يستحيل أن تكون موحّدة، لا في مضامينها، ولا في أساليبها، فهي كتابة قوامها الانسياب والتراكم (كتابة مركومة). البحث عن وحدة اليوميّة يصبح وفقا لهذه الاعتبارات الأجناسيّة القاعديّة مجرّد وهم، أو سباحة ضدّ التيّار. ممّا يجعلنا نحدس بأنّ الكاتبة أعملت المقصّ لحذف عدد من يوميّاتها لا ينسجم مع مشروعها النّشريّ، أو لعلّنا إزاء تبعيض نوعيّ، يفيد دلالة الجزء على الكلّ، وكلّها فرضيات عمل واردة لا تحسمها غير المقاربة النّشوئيّة الّتي تمكّن من تدقيق المرجع في كتابات الأنا. ولكنّ «من» تفيد في تقديرنا عامّة خروج اليوميّة المنشورة هنا بما هي يوميّة ايديولوجيّة من رحم المخطوط باعتبارها نوعا من التّقطيع المابعديّ الّذي لا يمكن تفسيره إلاّ بمعرفة سياقات الكاتبة المخصوصة الّتي حفّت بآليّات التّحويل والتّفكير في النّشر. هل طال هذا التّصرّف أيضا الفترة الزّمنيّة الّتي تغطيها كتابة اليوميّ في الكتاب المنشور، وهي الفترة الممتدّة من ديسمبر 2010 إلى ديسمبر2013؟ هنا أيضا يحضر افتراض آخر مفاده أنّنا إزاء تقطيع زمنيّ محض أريد له

نحن إزاء يوميات مُحددة الإطار وذات أبعاد سياسية واضحة

أن يكون موافقا لفترة تاريخيّة استثنائيّة مرّت بها البلاد التّونسيّة، هي «ثورة الياسمين» الّتي اندلعت شرارتها في تونس قبل أن تجرّ خلفها بلدانا عربيّة أخرى.

إنّ ما اصطلحنا عليه بـ اليوميّة الإيديولوجيّة، لا يمكن إلاّ أن يكون كتابة محدودة بفترة زمنيّة معلومة، مثلها في ذلك مثل يوميّة المرض، أو يوميّة السفر أو يومّية السّجن، لأنّ وحدة الموضوع مستحيلة في كتابة اليوميّة سيّما إذا كانت هذه الكتابة بمثابة التّمرين المستمرّ في الزّمن استمرار حياة كاتبه مثلما كان شأن أستاذ الفلسفة السويسريّ هنري فريدريك أميال (1821 1881-) Henri-Fréderic Amiel الّذي مارسها دون انقطاع يذكر حتّى تكدّست منها مجلّدات هائلة الحجم(16847 صفحة، كتبها من 1839 إلى 1881) يعجز القارئ عن قراءتها كلّها، لأنّها ستستغرق منه ما استغرقته حياة أميال في كتابتها! إضافة إلى ذلك، نشير إلى أنّ اليوميّات هي المعين الّذي ينهل منه المؤلّف في فترات عمريّة لاحقة من أجل كتابة سيرته الذّاتيّة أو مذكّراته، لأنّها عمل تسجيليّ خامّ في جوهره (ذاكرة، أرشيف ورقيّ)، لا يمكن أن يخضع لتصميم ماقبليّ. عامل الزّمن وحده هو الّذي يمكن أن يتحكّم بموضوعاته أو بوحدة موضوعه، وذلك عندما تنقدح كتابة اليوميّ بفعل حدث طارئ أو مفاجئ يهتزّ له توازن الحياة الفرديّة. لا شكّ من هذا المنطلق أنّ الاندلاع المفاجئ لحدث الثورة التّونسيّة كان السّبب الرّئيس في تكوّن اليوميّة الإيديولوجيّة لدى الكاتبة، سواء مثّلت هذه اليوميّة جزيرة عزلت ما بعديا داخل فضاء يوميّاتيّ أرحب، أو أنّ نشوئيّتها ارتبطت باستحداثها كتابة طارئة تستمدّ خطواتها وإيقاعاتها من سياق سياسيّ استثنائي حادث زامنته، وزامنها.

نستخلص بدءا من كلّ ما ذكرنا أنّ اليوميّة الإيديولوجيّة لا تكون إلاّ حادثة أو طارئة، ومحدودة بفترة زمنيّة ما، وهما السمتان اللّتان تقرّبانها، من وجهة نظرنا، من كلّ اليوميّات القائمة على وحدة الموضوع.

السّؤال الأوّل المطروح الآن، ماهي خصوصيّات إنتاج المعنى في النجمة والكوكوت باعتبارها يوميّة إيديولوجيّة، وإلى أي حدّ يمكن اعتبار شكل اليوميّة هو بذاته شكلا أيديولوجيا يمكن دراسة مضمراته الصوريّة، بما هي تعبيرات ذات أبعاد إيديولوجيّة؟ نفرّق إذن بين مستويين متعالقين يتظافران في نحت الإيديولوجيّ: الإيديولوجيا موضوعا يؤثث فضاء المعنى في اليوميّة

وإيديولوجيا اليوميّة بما هي شكل، أو منوال أجناسي من مناويل كتابة الأنا.

1- الإيديولوجيا في اليوميّة

خلافا لما يذهب إليه نقّاد اليوميّة من كونها كتابة يوميّة منتظمة– إلى حدّ ما– حتّى أنها صارت عند ديدياي بمثابة «التّمرين اليوميّ «، فضلا عن اختصاصها تبعا لذلك بانفتاح[13] لا يحدّه نهائيا سوى موت كاتبها، فإنّ اليوميّة الإيديولوجيّة، مثلما تجلّت لنا في النّجمة والكوكوت، هي يوميّة مقترنة بحصول حدث خارجيّ سياسيّ له أبعاد إيديولوجيّة، وهي مسيّجة، تتمتّع بحدود بيّنة واضحة مكانا وزمانا: إنّ أحداثها المرويّة محدّدة في المكان ب تونس، وفي الزّمان بـ ثلاث سنوات، وهي الممتدّة من ديسمبر 2010 إلى ديسمبر 2013. نحن إذن إزاء يوميّات محدّدة الإطار، تتمتّع باستقلاليّة سياقيّة، ومرجعيّة تاريخيّة خارجيّة، ذات أبعاد سياسيّة واضحة المعالم. وهو ما يكفل مبدئيا وحدتها العضويّة الّتي تنأى بها عن أن تكون شتاتا يوميّا مبعثرا يتنامى في اتّجاهات عدّة لا حصر لها مثلما هو شأن اليوميّة الخاصّة عادة. إنّ حدث الثّورة التّونسيّة بما هو حدث جلل، ومباغت هيمن على الواقع اليوميّ للتّونسيين، خاصّة

في لحظات تشكّلاته التّاريخيّة الأولى، وكلّ ما تلاها مباشرة، هو إذن العامل الخارجيّ المشكّل لوحدة هذه اليوميّات الاستثنائيّة. يمكن أن نقول تبعا لهذا، إنّها يوميّات تتحرّك داخل فضاء مبأّر إيديولوجيا. ومن ثمّة يكون أنا الكاتبة، أنا متمركزا في قلب الحدث المرجعيّ السّياسي، يحاوره باعتباره حدثا محوريّا يستقطب اليوميّ، ويؤثّثه، ويمحّض الفرديّ للتّفاعل معه على نحو ما، يوما بيوم. الأنا لا يكون هنا إلاّ منفتحا عل الجمعيّ، إنّه خليّة متحرّكة في عالم متوتر تتداخل فيه الأصوات، وتتحاور لأنها جميعا واقعة تحت سطوة جاذبيّة مرجعيّة موحّدة، تستقطب الكلّ في بؤرتها المركزيّة. إيقاع اليوميّ في النّجمة والكوكوت، أو ما يعرف بتواتر كتابة اليوميّ، يستمدّ – تبعا لذلك – كثافته الكميّة من العلاقة الوطيدة القائمة بين كثافة وقائع الخارج في سيرورتها التّاريخيّة المتوثّبة، واندماج الأنا بها فاعلا ومتفاعلا في آن. لذلك يمكن اعتبار السّنوات الثلاث الممتدّة من 2010 إلى 2013 بمثابة فترة ذروة ذات أبعاد تمثيليّة لما تسمّيه الكاتبة يوميّات البلاد، أو يوميّات السّنوات الثلاث بعد الثّورة. فتوزيع عدد اليوميّات المكتوبة باعتبار كلّ سنة يؤكّد أنّ شهر يناير 2011 الذّي حظي بـ 16 يوميّة محقّقا أعلى نسبة تواتر كتابيّة شهريّة، مثّل لحظة تاريخيّة فارقة، إضافة إلى أن عدد اليوميّات موزّعا باعتبار السّنة الواحدة، كان أقصاه 40 يوميّة في –2010 2011، ثمّ 23 في –2011 2012، وأخيرا 23 يوميّة في –2012 2013. وهو ما يدلّ على أنّ وتيرة الكتابة لم تكن كثيفة جدّا عموما قياسا إلى عدد أيّام السنة الواحدة، أو حتّى الشهر الواحد، ولكنّها داخل الفترة المذكورة منتظمة إلى حدّ كبير في نسبة تواترها، وجميعها متعلّقة عضويا بشهر قادح، هو شهر يناير 2011.

اليوميّة الإيديولوجيّة عند حفيظة قارة بيبان، هي في جوهرها ضرب من التّقطيع التّاريخيّ لفترة حاسمة عاشتها من تاريخ تونس المعاصر. ولعلّ قلّة هذه الكثافة الكميّة هي أيضا وليدة الانتقاء الّذي خضع له النصّ المنشور من جهة، أو مرتبطة من جهة ثانية بوتيرة الكتابة العامّة لدى الكاتبة الّتي لم تكن لتتفرّغ كليّا وفي كلّ الأحوال للكتابة، وهي أمّ وزوجة، وربّة بيت، ولعلّ هذا السّؤال لا ينفصل عن تفحّص الوضعيّة الخلافيّة للمرأة مؤلّفة وكاتبة لذاتها في العصر الحديث. الكتابة عن الحدث الثّوري هي حدث لا يقل عنه قيمة في حياة الكاتبة. فضعف الكثافة الكميّة، يقابله من منظور آخر توهّج الحرف لدى الكاتبة، وقوّة اندفاعه بما هو في العمق تعبيرة أصيلة عن وجدان حرّرته الثورة من عقاله– أو هكذا كانت تظنّ– غالبا ما يتجاوز النّقل والتّسجيل الواقعيين لبضحي في اليوميّة فعل وجود حقيقيّ يندفع محقّقا لمعنى الحياة الأسمى(المنشود). وفي هذا المستوى بالذّات تفترق كتابات الأنا تلفّظا عن الكتابة الرّوائيّة الملتحفة بجلباب المتخيّل. تقول الكاتبة في « كلمة أولى»: عادت الكلمات تتّقد، تتوهّج، تركض تحت سماء تونس العاصفة، ذاك الشّتاء كاسرة الحدود والأسوار. عادت الكلمات، وأنا أركض على ضفاف البحر الثائر الهادر كلّ صباح، تكتب يوميّات البلاد، يوميّات الذّات تسكنها الثورة على الدوام، وتطير بها الأحلام المستحيلة الّتي أصبحت ممكنة في وطن خرّبه الاستبداد»[14]. هكذا، عندما تلتحم ثورة الخارج بثورة الدّاخل، تصبح كتابة اليوميّ سؤالا إيديولوجيا في الصّميم. فالسّؤال الهوويّ المضمّن في النجمة والكوكوت يكمن في هذا التّقاطع بين التّاريخيّ العامّ، ممثّلا بثورة عارمة ترفع شعارات الحريّة والمساواة، والعدالة الاجتماعيّة، والديمقراطيّة، رهانها الأوّل التّغيير، والأفق القيميّ الفرديّ وهو بمثابة قاعدتها الثّقافيّة ممثّلا بمطلب الحريّات، والتّحرّر

الأنا المفعم بالحب ينتكس تحت وطأة الخيبة

من كلّ أنماط الاستبداد والقبح، والغطرسة الّتي رفضتها حفيظة قارة بيبان إنسانة متمسّكة بإنسانيّتها العميقة، وأديبة ملتزمة انتمت إلى رابطة الكتّاب الأحرار قبل الثورة. ومفاد هذا السؤال بما هو حامل إيديولوجيّ، هو كيف يمكن تخطّي القطيعة الايديولوجيّة والقيميّة بين عوالم الخارج الّتي هيمن عليها الاستبداد والانحطاط القيميّ في أزمنة ما قبل الثّورة، وعوالم المثل الممثّلة لمرجعيّات الذّات الواحدة والمتعدّدة في آن: الذّات الخاصّة في أبعادها الإنسانيّة الحميمة، الذّات التّأليفيّة الممثّلة للانتماء لنخبة ثقافيّة، والذّات التّاريخيّة الفاعلة والمتفاعلة بمستجدّات تاريخها اليوميّ؟ ولمّا كانت الكاتبة تعيش وقتها ظرفا ثوريّا بأتمّ معنى الكلمة، فإنّ هذا السّياق الاستثنائي قد فتح بأعجوبة أمام ناظريها أبواب التّاريخ الموصدة منذ زمان على كلّ الاحتمالات الممكنة: احتمال نجاح الثّورة وتحقيقها لأهدافها المرجوّة، أو فشلها الذريع، والعودة –المثقلة من جديد بالاستبداد– إلى المربّع الأوّل، فيما يشبه المسار السيزيفيّ المخيّم بشبحه على مستقبل واعد بقدر ما هو مخيف في آن واحد.

سؤال الهويّة في هذه اللّحظة التّاريخيّة الحاسمة، سؤال مربك مفتوح على المجهول، فضلا عن كونه يعبّر عن أقصى حالات التوتّر الممكنة الّتي تعيشها كاتبة تعي جيّدا انفصامها الهوويّ، وتصدّع كيانها على مدى سنوات طويلة من القمع، كانت ملجمة لأصوات فئة من المثقّفين المنافحين عن الحرّيات في مجتمع كان يحكمه الصوت الأوحد. الاندماج بالثّورة الواعدة كان تعبيرا عن الأنا مشروعا، وصيرورة ضدّ الاغتراب الهوويّ، وضدّ الشّعور بعدم الانتماء إلى واقع القهر والاستبداد. هذا الزّمن هو الزّمن الموصول بالذاكرة، لأنّه ليس زمن ما قبل الثّورة القريب، بل له جذور ممتدّة وغائرة في جسد الأمّة العربيّة، وحضور القضيّة الفلسطينيّة بقوّة في أدب حفيظة قارة بيبان، فضلا عن استدعائها لها في يوميّاتها، دليل على أنّ سؤال الهويّة موصول بامتياز في ذاكرة الكاتبة بمحنتي التشتّت والاغتراب في التّاريخ العربيّ الحديث الّذي بقي فيه الفاعل التّاريخيّ إلى اليوم مسلوب الإرادة والفعل، يعيش على الدوام تكرار خيباته السيزيفيّة، وانسداد أفقه الحداثيّ، لذا هو مشروع مؤجّل حتّى لا نقول فاشلا. لذلك كلّه بدا سؤال الثّورة متّصلا بزمن آنيّ يوميّ يبشّر بقطيعة تاريخيّة مفصليّة، ولكنّه مهدّد ضمنيا بتكرار السّقوط في المتاهة نفسها، إن هو سار في مجهول العود على البدء، بما يجعل المستقبل وجها من وجوه العودة المقنّعة إلى الماضي. وفي خضمّ هذا التوتّر التّاريخيّ الأقصى، يظهر لنا الأنا في يوميّاته متأرجحا، منفعلا، متقلّبا لا يستقرّ له شأن، لأنّه يعي هشاشة سياقه، ومدى ارتهانه مشروعا يريد أن يكون صائرا نحو الاكتمال في لحظة استثنائيّة إلى تيّارات، ومؤثّرات، وتحوّلات لا قبل له بالسيطرة عليها، أو حتّى توجيهها نسبيا. لذلك أيضا بقي الحلم بترميم الهويّة المتصدّعة سؤالا معلّقا تنبض به اليوميّة يوما بيوم. اليوميّة الايديولوجيّة بهذه المواصفات، هي ضرب من ضروب التأريخ على المدى القصير Micro- histoire[15] يجعلنا نعيش التوتّرات التّاريخيّة الدنيا، وهي تنبض وتتكثّف وتتخثّر لحظة بلحظة في مسار لا نبصر مداه إلاّ متقطّعا في استرساله اليوميّ، متدفّقا من منظور فاعل محدود الفاعليّة، يتخبّط ويصارع، ينفعل ويتفاعل، ولكن دائما في حدود رؤية قصيرة المدى، إن لم نقل في أفق معتّم، مجهول المآل. ورغم ذلك فلحظة التّلفظ هي لحظة نضال واندماج قصوى بموجات التّاريخ، تمنح الأنا شعورا استثنائيا بأنّه يعيش ويتنفّس بملء رئتيه، وبكيان كامل لا يتجزّأ: إنّه كائن يصنع تاريخه الممكن، ولحظة الممكن التّاريخيّ هي أقصى لحظات الشّعور بالامتلاء التّاريخيّ. ففي هذه اللّحظة بالذّات يغادر أنا الكاتبة

عزلته الخاصّة، ويتّجه بقوّة صوب الآخر/ الآخرين، ليلتحم البعض بالكلّ، فتذوب الحدود العازلة بين أنا/ نحن بما هي حدود وهميّة، بل زائفة في لحظة استنفار قصوى. الأنا المتشظّي عادة في اليوميّة، يصبح هنا، وفي هذا السّياق الأيديولوجي بالتحديد، أنا موحّدا: العقل، الجسد، النّفس، الحواسّ، جميعها تتناغم في سمفونيّة موحّدة النغمات:» تمضي خطاي واثقة مع الجموع...

يستعيد جسدي قوّته وعنفوانه...يعلو صوتي مع أصوات المواطنين جوقة واحدة تنادي بسقوط النّظام، وتنشد عاليا بصدق وحرارة «نموت، نموت، ويحيا الوطن»، وقبضات الأيدي ترتفع للسّماء لاستعادة حقّها في الكرامة، والحريّة، والحياة...قطرة كنت في بحر هادر...

...رجعت إلى البيت...وأنا أشتعل وأضيء»[16].

لا يخفى أنّنا بإزاء سجلّ الإيديولوجيا وهو يتشكّل في تجربة حيويّة حلوليّة أشبه ما تكون بالتّجربة الصّوفيّة، وهي مفارقة، لافتة، تدلّ على أنّ الحقول الأكثر تباعدا: الدنيويّ–السّياسيّ– / الغيبيّ– الرّوحيّ، تتلاشى عندما تتحوّل إلى تجارب قصوى بعيدا عن السّجال الفكريّ. التّاريخ اليوميّ، هو إذن التّاريخ تجربة نابضة، مقابل التّاريخ ملفوظا مركّبا من عالم يصنعه التّرابط الفكريّ المفسّر لآثار الماضي المتبقيّة. علاقة الدّاخل بالخارج الّتي طرحتها ديدياي باعتبارها علاقة انفصاليّة انفصاميّة في اليوميّة الخاصّة الغربيّة، نراها من هذا المنظور الاستثنائيّ، وعلى الأقلّ في جانب من جوانب هذه اليوميّة الإيديولوجيّة، اتّصاليّة، تفاعليّة بامتياز.

لقد كانت حفيظة قارة بيبان في مرحلة أولى، وهي تلتحم بموجات التّاريخ الهادرة تقاوم من أجل دفع حركة التّاريخ قدما نحو تأسيس المدينة الفاضلة، كانت وهي تلتحق باعتصام القصبة[17]، مع نظرائها من الكتّاب الأحرار رافعين معلّقاتهم، تعيش أقصى لحظات انتعاشها وانصهارها في الحلم الجماعيّ، هنا بالذّات لا يكون أنا الكاتبة إلاّ نقطة في بحر(نحن)، هذا الالتحام تتخلّق منه زمنيّة حالمة، واعدة بمستقبل أجمل، زمنيّة قوامها تحرير الفعل من عقاله، واكتساح الفضاء، والتمركز فيه باعتباره فضاء حاضنا، ينتعش فيه الوجود الحرّ الّذي تنطلق فيه الكلمة دونما شرط ولا قيد في تجربة فذّة أوصدت دونها الأبواب دهرا من الزّمن : « ...فقد عدت خفيفة منطلقة، أكثر قدرة وطموحا، فالعالم أصبح أجمل والغدّ رغم كلّ شيء لنا».[18]

الخطّ الإيديولوجي في هذا المستوى مندمج بالممارسة الإيديولوجيّة، بما هي تعبيرة مسؤولة عن خلفيّات فكريّة و قيميّة تتبنّاها الكاتبة داخل مجموعة ثقافية : رابطة الكتّاب الأحرار. ولكنّنا بقدر ما نوغل في الزّمن مبتعدين أشواطا عن سنة 2011، نبدأ رويدا رويدا في استشعار قرائن الانحدار باتّجاه انسداد هذا الأفق الواعد. فالكاتبة تكتشف تدريجيا، وهي تتحوّل من فاعل تاريخي مندمج بالحدث إلى شاهد يرصد حركة التّاريخ متأملا غيره من الفواعل، أنّ هذه اللّحظة التّاريخيّة الاستثنائيّة، لحظة معقّدة إن لم نقل مزيّفة، مجهولة المآل تصنعها إرادات، وتموقعات ايديولوجيّة غير مأمونة العواقب بعيدا عن البراءة، والأحلام الطوباويّة. الصّراع قائم هنا على أشدّه بين إيديولوجيا التّغيير، وإيديولوجيا مقاومة التّغيير. تحوّلت اليوميّات من كتابة تماه إلى كتابة تبعيد، تقوم على تقييم الآخرين ايديولوجيا وتسجيل انحرافاتهم الّتي تقاس في هذه الحالة باتّساع المسافات القيميّة الّتي باتت تفصل الأنا فاعلا تاريخيا ومؤرخا لما حوله، عن غيره من الفواعل المزامنة له في الزّمان والمكان. من أهمّ هذه المؤشّرات، تطاحن اليسار واليمين تكالبا على السّلطة «هل تطوّرت الحرب شبه المعلنة بين اليسار واليمين ليحتال كلّ طرف

تنقدح كتابة اليومي بفعل حدث طارئ يهتزّ له توازن الحياة الفرديّة

ويقدّم أعوانه للإساءة للآخر غير عابئ بجرّ البلاد إلى الفتنة، ودفعها إلى الخراب؟»[19] تطوّر الصراع إلى فتنة تتوّج بالاغتيالات السّياسيّة» مثلّجة أصابعي، معتمة سماء هذا اليوم في وطن يتشظى بين أيدي حكامه الجدد، تكاد تفترس كلّ أحلامه على مائدة الثورة. مثلّجة أصابعي والكتابة تتشبّث بالقلم الراكض علّه يشعل ضوء الكلمات تفضح لصوص الثورات وتقاوم الظلمات القادمة مع الناقمين على الحياة الداعين جهارا «لقطف الرؤوس». هكذا صرّح أحد الملتحين في تجمّع بأحد الشوارع التونسية في حكم الإسلاميين:» علينا برأس نجيب الشّابي وشكري بلعيد! وها قد بدأت الرؤوس تسقط!».[20]

تحاكم الكاتبة الإعلام باعتباره لم يلعب دوره الثّقافي بل أجّج الفتنة» تعيد كلماتي الماضية خوفي على الثورة جمعتنا فيها المحبّة. المحبّة الّتي تنهال عليها الآن أحجار الكراهية ويتلقفّها الإعلام المرئيّ خاصّة بمنطق الإثارة والمصلحيّة وبنفس أفكاره القديمة الّتي تغذّت من النظام المنهار، ناسيا دوره الثقافيّ والحضاريّ الّذي به يقاس مدى تقدّم الشّعوب مساهما في مزيد زرع الفتن»[21].هكذا لا تستمدّ اليوميّة الإيديولوجيّة لدى حفيظة قارة بيبان وحدتها من صميم وحدة موضوعها فحسب، وإنّما من التطوّر العضوي الّذي ترصده الكتابة اليوميّة، وهي تسجّل، وتحلّل مسارات الثّورة واتّجاهاتها في البلاد يوما بيوم. أهمّ ما نقف عليه في هذا المستوى، هو التطّور الملحوظ الحاصل في شخصيّة الكاتبة كلّما اقتربنا من نهاية اليوميّات وابتعدنا طردا عن بداياتها الملتهبة. سجلّ الحرارة ومتعلقاته (التوهّج/ الاتّقاد/الاحتراق/ الاشتعال...) يترك مكانه لسجلّ البرودة (مثلّجة أصابعي) الّتي تستولي على النّفس والجسم معا. كلمة واحدة، –رغم شراسة المقاومة– تختم هذا النزول المطّرد إلى الجحيم « تعبت».[22].هذه الخيبة العميقة الّتي نراها بحجم الحماس الفيّاض الّذي عقبته، كانت تعمل كلّ يوم على قلب موازنة البداية: الأنا المنفتح على الآخر، الأنا المفعم بالحبّ، الأنا المتفائل بالمستقبل، ينتكس تحت وطأة الخيبة والألم، فإذا هو عود على بدء، يجترّ زمانه الخادع، إذ لا فرق بين ماض وحاضر ولا كبير أمل يرتقب من مستقبل يطلّ بأشباحه على بئر سحيقة. هكذا رأينا اليوميّة الإيديولوجيّة تسقط من جديد لدى الكاتب في دورتها الكلاسيكيّة المعروفة، دورة الانغلاق على الذّات الفرديّة، وعوالمها الثابتة، لأنّ الآخر يظل مرّة أخرى الغريب الّذي يخيّب الآمال: نسائم الصباح مازالت تحمل براءتها، وأنا على الطريق أتمشى في» رياضتي الصباحيّة...تطايرت أفكار مع خطاي على الرصيف...تكتب يوميّات ثورة كانت وأمست حلما مجرّد حلم.» وفي سياق آخر غير بعيد» نسائم الصباح المنعشة المتخللة الجسد العابرة الروح لا تأخذ معها سحابة الحزن والأسى المصاحبة انتكاسة الأحلام.

ومع ذلك من حصة رياضتي الصباحيّة، من هيماني على الطريق أعود إلى وحدتي. أحاول أن أحرّرني من صخب العالم الّذي يسكنني، من انكساراته، من خيباته، لأمضي إلى مواعيدي، فقط مع الذات والقلم، علّه يومض بقطرة ضوء تزيح بعض هذا الأسى الصّباحيّ»[23]

الوحدة والقلم هما دعامتا كتابة الاغتراب في اليوميّات. ولكنّ الوحدة لدى حفيظة قارة بيبان ليست موقفا مسبقا من العالم، أو هروبا من المسؤوليّة التّاريخيّة، إنّها وليدة تجربة حيّة مريرة، أجبرت فيها الكاتبة على الانفصال عن واقع لم يعد بإمكانها أن ترى فيه ذاتها، ولا أحلامها الإيديولوجيّة. لقد وعت يوما بيوم هشاشة فاعليّتها التّاريخيّة، أي عدم قدرتها على التّحكّم في مجرى الأحداث العامّة، لوجود تيّارات مضادّة للثّورة تعمل على تقويضها، وتحويل مجراها.» حكومة تفتح المجال على مصراعيه

للدعوات الوهابيّة تغزو عقول الشّباب الغارق في الفقر والضياع وتتناسى موقف علماء الزيتونة من الوهابيّة...ومعارضة لا تقدّم غير ما يزيد الشّباب يأسا من ثورة تسرق منه من الدّاخل والخارج، يوما بعد يوم، ونخب سياسيّة تتصارع، ولكنّها تلتقي كلّها لرفع نعوش الشّباب الّذي حلم بثورة تعيد له كرامة الحياة».[24]هكذا تكسّرت المرآة، وما أكثر ما تتكسّر المرآة في كتابات الذّات.

الإيديولوجيا المضادّة في يوميّات حفيظة قارة بيبان، هي المنصّة الثّقافيّة القارّة الّتي تصدر عنها وترتدّ إليها في كلّ حالات الخيبة الّتي تعيشها يوميا: ارتداد الثّورة، وإرهاصات ضياع القيم الإنسانيّة الّتي جاءت لتبشّر بها. هكذا تبدأ الكاتبة في رسم حدود انفتاحها على الواقع الثوريّ المغشوش من خلال الارتداد إلى أفق ثورة أرحب وأكثر أصالة: «الثّورة في معناها المطلق»[25] الّتي هي «شرر» يسكن الكاتب الأصيل وهو يبحث» عن قيم أصيلة في عالم متدهور، كما يقول قولدمان»[26]. العودة إلى الذّات بعد اكتشاف خديعة العالم الخارجيّ هي بالأساس عودة إلى القلم. القلم هو الهويّة الثّقافيّة لحفيظة قارة بيبان الّتي تتماهى فيها قيم الثّقافة الأصيلة: الحبّ، الإيمان، الحريّة، العدالة، الخير، بما هو إنسانيّ عميق في وجدانها، وهي في الآن نفسه قاعدة إيديولوجيا التّغيير عندها. لذلك فإنّ العودة إلى الذّات تتماهى لديها مع العودة إلى الكتابة بما هي إبداع وعلّة وجود:»... وإذا نحن كما قال طاغور «بالفنّ نكون.»[27]

حدود الأنا الفرديّ، والأنا الثّقافي حدود واهية في عالم يوميّات حفيظة قارة بيبان، هذا من ذاك. لذلك نرى أنّ الفاصل بين اسم العلم، والاسم التّأليفي فاصل رقيق دقيق» الكاتب الحرّ الصادق هو نبض الإنسان وضمير المجتمع»[28] ، ولكنّ الهويّتين تتّحدان كليّا في مواجهة عالم الخارج عندما يصبح في قطيعة قيميّة معهما: الهروب من العالم، هو هروب إلى القلم لمعانقة الذّات الأصيلة. لذلك جاءت المقاربة الإيديولوجيّة المضادّة للاستبداد في اليوميّات، مقاربة أنسيّة Humaniste في جوهرها، تسبر تحوّلات تردّي الثورة بمسبار القيم الإنسانيّة العليا:» المحبّة نصف الإيمان، يقول الشّاعر الفرنسيّ فكتور هيقو صاحب «البؤساء». ولكنّهم ما عادوا يعترفون بالمحبّة، ولا يدركون معنى الإيمان».[29] موازين العالم بهذا المنظور ليست موازين قوّة وغطرسة، بل هي موازين محبّة وسلام «إنّ الثيران والدببة لا تستطيع أن تحطّم باب القدر ولكن قلب حمامة يستطيع ذلك»[30]. تراجع الحلم الإيديولوجي بتغيير العالم يوازيه ارتداد قويّ لعوالم الذّات والكتابة، بما هي «الملجأ الرحميّ» لدى الكاتبة. لذلك كانت فورة المنطلق الإيديولوجيّة تمهيدا قويّا لعود على بدء، وانطوائيّة هي من صميم الفعل الكتابيّ في اليوميّة الخاصّة. الاحتفاء بعوالم الإبداع الرّوائيّة الكثيرة، بما هو تسجيل في اليوميّة لنشاط الكاتبة التّأليفيّ المتلوّن بنكهة الأيّام وظروفها القاسية والجميلة على حدّ سواء، هو أكثر من توثيق لمادة إبداعيّة خامّ تتخلّق يوميا، إنّه في جوهره تمسّك بالملجأ الرّحمي ضدّ عدوانيّة العالم وإسفافه: « في وحدتي هذا المساء تخصب الأرض الّتي أحفر بعيدا عن صخب الآخرين». الإبداع هو لحظة خلوة، خلوة الفنّان وهو يبدع عالما بديلا من العالم يتواصل خلاله عضويا مع أناه الإبداعيّ الخلاّق ويحاوره في شتّى تجلّياته الأدبيّة، حتّى لكأنّ الشّخوص في يوميّات الكاتبة تصبح بدائل أنويّة منها، تشاركها الحياة والإحساس، وتطلّ علينا من الورق الحيّ بلحمها ودمها، وقد استوت كائنات يختلط وجودها المتخيّل بمفارقات سياقات كتابتها المرجعيّة. هذا البعد يمنح الكاتبة مساحات حريّة حقيقة في بناء عوالم تستهويها وتقولها،

الشّخوص في يوميّات الكاتبة تصبح بدائل أنويّة منها

فتشعرها بفاعليّة أصيلة نابعة من ذاتها العميقة الجوّانيّة، خلافا لشعورها بأنّها في عالم التّاريخ الاجتماعيّ ليست غير جسم غريب يتكلّم لغة لا يفقهها الآخرون. لغتها وحدها هي الّتي تمثّلها. يقودنا هذا التّحليل إلى طرح معضلة القطيعة الأبديّة بين واقع الكتابة، وواقع العالم لدى الكتّاب عامّة، ولدى كتّاب اليوميّات بالأخصّ. لقد كانت اليوميّة الإيديولوجيّة لدى حفيظة قارة بيبان لحظة رهان قصوى لدحض هذه القطيعة، وبناء مصالحة تاريخيّة بين الأنا والآخر، بين العالم الجوّاني والعالم البرّاني، وفي عبارة أدقّ بين الثّقافة والسّياسة، ولكن أليست مقاربة الثّورة التونسيّة المطروحة هنا هي برهان جديد يدعم هذه القطيعة؟ هل كانت اليوميّة الإيديولوجيّة في النّجمة والكوكوت غير أضغاث أحلام، حلما طوباويا كبيرا بانبثاق المدينة الفاضلة من رحم الظلمات، عقبته خيبة أكبر في تربّع الحكماء على هرمها؟

1 إيديولوجيا اليوميّة

الحديث عن الإيديولوجيا في اليوميّة أمر واضح لا يحتاج إلى بيان من الناحية المنهجيّة، ولكن هل يبدو الحديث عن إيديولوجيا اليوميّة بمثل هذا الوضوح؟ ما المقصود من اعتبار شكل من أشكال الكتابة حاملا لأبعاد إيديولوجيّة، سيّما ونحن نتحرّك داخل نوع من أنواع كتابات الذات، ألا وهو نصّ اليوميّة الخاصّة؟

إنّ كتابات الذّات بأنواعها المعروفة: السيرة الذّاتيّة، المذكّرات، اليوميّة الخاصّة، الرسائل، محكيّات الطّفولة...كلّها تعبيرات سرديّة هوويّة تمثّل –حسب نظرنا– إن هي جرّدت من تفاصيلها الحكائيّة السطحيّة مناويل كتابة الذّات الممكنة، بل وليست حتّى النّهائيّة. هذه الخطابات السّرديّة تشكّل في العمق مناويل/ خطّاطات كتابة صوريّة تقول العالم وتبني دلالاتها المتحدّثة عنه وفق بنى مخصوصة، وأساليب في كتابة المرجعيّ ذات أبعاد دلاليّة ورمزيّة يمكن توصيفها والكشف عن مضمراتها الإيديولوجيّة. فالسّيرة الذاتية الرّوائيّة مثلا تصاغ باعتبارها أحد مناويل سرد الأنا في بنية المحكيRécit الّتي تقوم أساسا على علاقات الترابط السببيّة بين مكوّنات الحكاية، فضلا عن اضطلاعها بوظائف تمثيل الأفكار والأقوال. هذا المنوال ينهض على خلفيّة إيديولوجيّة مخصوصة قوامها القول بمعقوليّة العالم، أو إمكانيّة تعقّله عبر المحاكاة، لأنّه يخضع في هذا المنوال لعقلنة المكوّنات الرّوائيّة غير المتجانسة من خلال إيجاد ترابطات سببيّة تقود مسارها من بدايته المعلومة إلى نهايته المحتومة. ولاشكّ أنّ اختيار هذا المنوال، هو موقف إيديولوجيّ من العالم يرسم ضمنيا حدود أفق الكتابة الذّاتيّة في بعدها التّصوّري الخالص الّذي يجعل منها استجابة وتحقيقا لرؤية توهم وتتوهّم بقدرتها على تفسير وجودها في عالم متشعّب متناقض تفسيرا مقنعا ومعلّلا. هل العالم هو دوما عالم منطقيّ قابل للفهم والتعقّل؟ هل يصحّ إخضاع مجرياته لمنطق الحبكة المتنامية الّتي تعكس مسارا متطوّرا يتخلّص من تناقضاته الحدثيّة من أجل إخضاعها لمبدأي الانسجام والتّرابط مثلما توهم بذلك بنية الحكاية في السيرة الذّاتيّة الرّوائيّة؟

(البقية بموقع المجلة على الانترنت)